آخر مثال !

صـــورة

من رأى الشمس وضحاها فى رمل الاسكندرية لم يرفى الطبيعة منظرا أمتع منه حياة تفيض مع الأشعةونسيم فاتر كأنفاس العذارى . وروح يسرى إلى الاجسام فيزيد فى حنينها . وعطر وخضرة تغمر البيوت كما يغمر الامل اللين القلب الشاب

غير أن الطبيعة حين تضحك للناس لا يستبع لضحكها إلا القليل . ولعل أعظم الناس إدراكا للاشياء يدرك كل شيء إلا سر الاستمتاع بالطبيعة، وهوسر يحسه العامى أحيانا كما يحسه الشاعر . الشاعر الذى تنطلق عواطفه فى إعجاب وعبادة أمام كل متناسب وكل شاذ فى الطبيعة

كذلك كان « سرحان أفندى » الشاعر الشاب . قدم الاسكندرية بفطرة ريفية كالخام من المعادن لم تصقله حياة الحضر . وقد ظل فى غيوب عنها إلى سن العشرين

انحدر من أقصى الصعيد إلى طرف وادى النيل على شاطىء البحر الابيض . ليس له رأس مال غير طموح فطرى أيضا إلى تجديد خلقته الأصلية . أى أن يعود سيرة جديدة فى شخصه وخلقه وعاداته . وليس هناك طريقة يفلت بها الريفى من خشونة الفطرة سوى الطريقة التى يختارها لنفسه. وقد اختار سرحان أفندى نظم الشعر طريقة إلى تمدين ذاته . ولا بد من الاعتراف بأنه كان يضم إلى طبعه الريفى نهمة شعرية

غير أن نظم الشعر طريق لا توصل إلى تلوين الفطرة الريفية باللون الحضرى . وعلى الاخص فى حالة الطفرة . وكان ينبغى أن يتبع سرحان أفندى طريقة التدرج فى تهذيب طباعه . كأن ينتقل من أقصى الصعيد إلى طنطا فى البدء ثم إلى القاهرة فالاسكندرية، وهو مبدأ متبع فى التعليم فان الطالب لا ينتقل إلى القسم العالى إلا إذا مر فى امتحان القسم الثانوى .

* * *

فى ضحى يوم وضاح من شهر مايو احتفلت فيه الطبيعة وتأنقت فى زينتها أى تأنق .

فلم تترك فى الاغصان ورقة جافة ولا فى الفروع زهرة غير نضرة . وانبسطت الخضر على مدى النظر يحف بها النوار الابيض كما يحيط الزبد بامتداد الموجة الزرقاء

انطلقت قدما « سرحان » أفندى إلى شاطىء الرمل لكى يستوحى الطبيعة والبحر والأشجار والسماء ، وما أكثر ما يغرب الالهام ويأفل الخيال وتفر عرائس البحر وتتقطع أوتار قيثار الشعر فى تلك الحالات . وهو ما اتفق بالفعل لسرحان أفندى . فقد اعتراه الذهول واستغرق فى هستيريا خيالية كالتى تعترى النائم الذى يصاب بالكابوس

وحانت منه التفاتة فأبصر رجلا نحاسى اللون فى جلباب أزرق ولبدة بيضاء قد تعمم عليها حافى القدمين . . قعد على الشاطىء ينحت فى حجر رملى . ولما تأمل سرحان أفندى مليا فى صناعة الرجل لمح رأس مومياء قد برزت فى الحجر . فدفعه الفضول إلى الاقتراب من ذلك الذى ينحت الحجر على طريقة القدماء

وما كان أشد دهشته حين رأى فى الرجل صديقا من « بلده » قدم معه الاسكندرية فى قطار واحد ، ولغرض واحد أيضا : فليس من المعقول أن يكون سرحان أفندى قد وفد على الاسكندرية لمجرد نظم الشعر . فانه عمل لا يشبع من جوع

* * *

ودار الحديث بين سرحان أفندى وصاحبه . وأول ما لفت نظر هذا الاخير فى « ابن عمه » بذلته الافرنجية ، ثم اعتدال « لهجته » قليلا

وكان « أبو رحاب » صاحب سرحان أفندى قد قدم الاسكندرية لكى يتكسب من صناعة لا تفضل صناعة ابن عمه سرحان أفندى . هذا ينظم الشعر . والشعر بضاعة مزجاة فى سوق الاسكندرية . وذاك يصنع من الحجر الرملى أمثلة المومياء ثم يعرضها على السياح . لعله آخر مثال مصرى . هو خلف ذلك الذى نحت من الجرانيت طريق الكباش . وخلد صورة رمسيس فرعون مصر فى تمثال جليل لا يزال نموذج الفن المصرى القديم .

كان أبو رحاب ينهض من نومه مبكرا فيقتطع من « المكس » حجراً رملياً ويعود به إلى ساحل الرمل فينحت منه مثال مومياء قديمة . فلا تضرب الشمس حتى يكون

قد انتهى من نحت المومياء ووضعها فى « عبه » ويقف فى الشوارع الكبيرة مترقبا مرور السياح أو هواة « الانتيكات » من الافرنج . فلا يزال يعرض بضاعته على الهواة من الاوربيين وغيرهم حتى يحصل فى مقابلها على ثمن يرضيه .

وعلى أثر ذلك يعود الى كوخه الحقير حيث تجمعه و « الاخوان » حلقة تتنقل وسطها « الجوزة » بين الأيدى وتتصاعد الانفاس الى منتصف الليل

* * *

كان أبو رحاب قدانتهى من نحت المثال المصغر من المومياء القديمة عندما اقترب منه سرحان افندى . وكانت المقابلة الأولى بينهما فى الاسكندرية . فدعا ابو رحاب ابن عمه و بلديا تمسرحان افندى الى عشاء يعده له فى كوخه . وأشار اليه من طرف خفي انه سيعقب العشاء نوع من « الكيف » ولم يشأ ان يوضحه .

ومثل سرحان افندى الذى يعيش بمخيلة شاعر ومزاج شاب ريفى يريد ان يتذوق كل شئ . قبل الدعوة . ولم يكن يستطيع ان يفعل غير ذلك .

واتفق فى ذلك اليوم ان صادف ابو رحاب سائحا امريكيا سهل عليه اقناعه بان المومياء قديمة ترجع الى عهد « منقرع » فاشتراها الامريكى بعشرة جنيهات .

عاد « أبو رحاب » الى كوخه فرحاً يحمل معه بدل « المومياء » ثلاث أوقيات من الحشيش الطيب

وبقي طول الطريق يحلم بضروب من التجميل يزين بها كوخه : حصيرة ملونة ولوحات مصورة من مثل « ابى زيد الهلالى » و « عنترة » و « الزير السالم » و « عزيزة ويونس » و « لبلابه » تغطي بفروعها المشتبكة ألواح الصفيح التى بنى بها الكوخ وبعض (قصارى) الازهار .

والى ذلك « جوزة » جديدة « مدندشة » تليق بان تقدم لمن ينزل ضيفاً على « الاخوان » .

فكر ابو رحاب فى كل هذه الاشياء دون ان يخطر بباله انه محتاج الى ثوب جديد وانه معرض للعلل مادام بلا نعلية . وانه هو بلا زوج ولا ولد يمثل العقم فى حياة كلها انتاج وفى وسط طبيعة كلها ازدهار .

وكانت ليلة مقمرة غمر فيها نور البدر كوخ المثال المصرى وكان فى فضاء من الارض المعشبة وهب الهواء البليل من الساحل يحمل أرج البساتين

وجلس الاخوان فى حلقة كمات بسرحان افندى وكان بعضهم من النعلة والبعض الآخر من عمال الفحم وتوسطت الجماعة « دفاية » كبيرة مشعلة ولما ابتدأت « الجوزة » تتنقل من يد الى يد وتصاعدت الانفاس مقرونة احيانا بالسعال الحاد جعل سرحان افندى يحاول ان يدخل فى عقول الاخوان شذورا من فلسفة العشبة الالهية

وكانت أنفاس الحشيش قد خدرت ثورة أحلامه الهستيرية .

نظر سرحان افندى الى المثال المصرى الاخير زمانه قابضا بيده على الجوزة مصعداً نفساً طويلا وقال : كأنى بهذه « الجوزة » رمز كامل للاشتراكية .

فحدق فيه الاخوان فاغرين افواههم كمن لا يعقل شيئا مما يسمع . وقد تناسى سرحان افندى انه بين عاميين اقحاح فى العامية، فاستطرد كلامه « نعم . هى رمز كامل للاشتراكية . فانها تدور على الجميع بنصيب متساو تقريبا . ولا تحتكر لواحد بين جماعة .

ثم هى تساوى بين الطبقات فى المزاج وفى الخلق والعادات . وما رأيت عظيما يدخن فيها لا يشبه فى مزاجه وفى خلقه بل فى صوته الحقير الذى ألفها واد من عليها . »

وقال سرحان افندى وكأنه فى غيبوبة عمن حوله : « ما أظنكم قرأتم التاريخ حتى تعرفوا « شيخ الجبل » ؟ »

فاجاب احد عمال الفحم مدعيا « المعرفة : الفاتحة لروحه . والله ما زرته إلا عدت موفقاً فى امرى مقضياً حاجتى »

فضحك سرحان افندى وقال : « كلا . ليس « شيخ الجبل » من اولياء الله . لقد كان زعيم شيعة تحارب الملوك والامراء وكان تدخين هذه العشبة او مضغها علامة مذهبه . اذن فاشتراكية « الجوزة » عريقة فى التاريخ »

وكان ضباب الدخان قد عقد سحابة كثيفة فى سماء الكوخ فازدادت ضآلة النور الذى كان يرسله مصباح صغير .

عبد الحميد سالم